حِبر أبيَض
WHITE INK

محمد الساعد

# المزدكية.. الفارسي يبقى فارسيًّا مهما تغيرت ديانته!

تُثْبِــتُ فارس دائمًا إنها بــلاد العجائب الدينية والعقائد والطــرق الغريبة، وأن تلك العقائد والممارسات لاتزال تُشــكّل الوجدان الفارســي، وتضرب بعنف في الثقافة الاجتماعية لأحفاد الفرس الأوائل منذ نشأة الزرادشتية وحتى اليوم.

بل إن معظم تلك الديانات أو العقائد جــرى تطويعها ودمجها ونقلها من عصر إلى عصر ، ومن دين إلى آخر، والاختباء داخلها لحماية الفارسية باعتبارها مفهوما عِرقيًّا وثنيًّا ثقافيًّا ضد الآخر، أيا كانوا أولئك الآخرون ديانات أو شــعوبًا أو ثقافات، فالفارسي يبقى فارسيًّا مخلصًــا لعِرقه، سواء أكان زرادشتيًّا أو مانويًّا أو مزدكيًّا أو يهوديًّا أو مسيحيًّا أو مسلمًا على أي مذهب يعتنقه.

فمن الزرادشــتية إلى المانوية، وأخيرًا المزدكية، كلها شــكّلت ســمات المجتمع الفارسي وانغماسه في الخرافات، واستمتاعه بممارســتها وتسويغها تحت أغطية دينية ثقيلة، وهو ما سنراه جليًّا بعد ذلك إثر دخول الإسلام، فبعض الفرس تحولوا إلى الإسلام، نعم؛ لكنهم بقوا فيه على الطريقة الفارسية متشــددين خلطوا بين مفاهيم الدين الإسلامي وبين طقوس أجدادهم الأوائل الزرادشتيين والمانويين والمزدكيين.

لم تنشــأ المزدكية في حقيقتها الدينية إلا باعتبارها ثورةً اجتماعية ضد الزرادشتية السائدة، التــي منحت النبــلاء والأمراء وكهنة الدين مكانة عُليا ســحقت ما عداها من طبقــات، ليأتي "مزدك" مؤســس المزدكية منقــذًا ثائِرًا عليها وعلى تعاليمها، لكنه في هذه المــرة أتى بما لم يأت به أحدٌ من الفلاســفة السابقين في فارس، فقد قال إن سبب الفرقة الاجتماعية في بلاده الأموالُ والنساءُ، ولذلك أتاحها سِلعةً مشتركة بين الناس داعيًا إلى مشاركة المال والناس بينهم.

إنها ثورة اجتماعية – بلا شــك- لكنها مدمرة في نهاية الأمر، أحرقت نفســها بنفسها، هو ما حصل لها في نهاية الأمر، فكرة ســاذجة صعــدت في فترة التردي والانحطاط الاجتماعي وانتشــرت انتشــارًا واســعًا في فارس أواخر القرن الخامس بعد الميلاد، وخصوصًا بعد أن اعتنقها ملك الفرس قُباذ الأول.

بلا شــك، إن فكرة مزدك الاشتراكية جاءت باعتبارها ثورةً اجتماعية، قبل أن تكون دينيةً على الزرادشتية والمانوية، لكنها فشــلت في تقديم أُنْموذجها الفريد القادر على الاستمرار، ولم تتمكن من الانعتاق منهما أبدًا وجاءت باعتبارها ديانةً مختلطةً لم تُعَبِّرْ حقيقةً عن تدين مستقل.

وإن صحَّ لنا أن نقول: إن الديانات (الزرادشــتية والملموســة، والمزدكية) كانت ذلك المثلث الذي شــكّل فارس من حيث (السياســة، والتَدَيُّن، والعلاقة مع الآخر) طــوال تاريخها حتى اليوم، لقد شــكّلوا "ربهم أو إلههم" كما يرونه هم لا كما تراه الأديان الســماوية، وقسّموا الكون، وتناقلوا العقائد ودمجوها في بعضها البعض.

بالطبع المزدكية لم تخرج عن ثنائية التدين، التي عرفها الفرس طوال تاريخهم، والتي تقسّم الكون في مجمله إلى شــر وخير، ظلمــة ونور، فالنور والخير هو الإله، والشــر والظلمة هي لرب آخر يتصارعان، إلا أن المزدكية تفسر الكون والآلهة تفســيرًا أكثر تطورًا عن المانوية فتَعْتَبِرُ الكونَ خليطًا من النار والماء والأرض.

تميّزت المزدكية بتأثرها بالفلســفة كثيرًا، ولخصت القوى المسيطرة على البشر في أربعة عناصر هي: البصيرة، والتّفاهم، والحماية، والفــرح، ولأن المزدكية كانت في جوهرها ثورة على النبلاء ورجال الدين الذين حملتهم مســؤولية تردي أوضاع الناس، أظهرت لامبــالاة أمام الطقوس الدينية، واعتبرتها شكليات مجردة يجب ألا يُلْتَزَمَ بها.

وكان أكثر ما اشتهر به مزدك، نهيه الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال، قائلا: "إن أكثر ذلك إنما يقع بســبب النســاء والأموال، ولذلك فقد أحلَّ النســاء وأباح الأموال، وجعل الناس شُركاء فيهما، كاشــتراكهم في الماء والنار والكلأ". كما أنه أسس فكرة قتل النفس أي الانتحار ليخلصها من الشر ومزاج الظلمة كما يزعم.

ونظــرًا لقرب خروج المزدكيــة في بلاد فارس من ظهور الإســلام، إذ إن مزدك ظهر في أيام الملك قباذ، ثم جاء بعده كسرى الأول "أنوشروان" الذي حطم المسلمون ملكه، يبدو من المهم تفسير دخول الإســلام إلى فارس أواسط القرن الإسلامي الأول، وفهم النفســية الفارسية التي حملت أثقال دياناتها وعقائدها القديمة ودمجتها في عروق إسلام "إيراني فارسي"، وهذا يدفعنا إلى التساؤل؟!! هل لا يزال ذلك الإسلام الإيراني الفارسيُّ مسيطرًا على المشهد حتى اليوم، وهل استطاعت الانعتاق منها بالفعل أم لا؟!!